هو العليم

نقاط هامّة حول

منطق عائشة في حرب الجمل
الجبر والاختيار

ألقيت هذه المحاضرة في مشهد المقدّسة

سماحة العلّامة الراحل

آية الله الحاج السيّد محمّد الحسين الحسيني الطهراني

أفاض الله علينا من بركات نفسه القدسيّة

بسم الله الرحمن الرحيم

المحاضرة

٢

أعوذ بالله من الشيطان الرجيم

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على محمّد وآله الطيّبين

ولعنة الله على أعدائهم أجمعين

قالت عائشة له: هل تزوّج أبوك أمّك؟

قال: نعم!

قالت: لأيّ سبب تزوّجها؟

قال: كان تقدير الله.

قالت: وكان ذلك من قدر الله.

هذا المطلب موجود في كتاب كنز العمّال، وبعد قولها ما قلت لم ينطق ذاك الشخص بكلمة[1]

[1] ـ كنز العمّال ـ المتّقي الهندي الجزء ١١ صفحة ٣٣٤، وقد ورد نصّ الحوار بينهما هكذا:

٣

وموضع الشاهد في الكلام هو: منطق عائشة بعنوانه جوابا، فهو منطق احتلّ فكر الكثير من خواصّ المسلمين وعوامهم، من خلال تبرير تصرّفاتهم على أنّها أمر واقع، وغير خارج عن التقدير الإلهيّ، فيلجؤون إلى هذا المنطق لرفع المسؤولية عن أنفسهم في الأمور المندرجة تحت اختيارهم وإرادتهم.

ونحن نرى هذا المنطق سارياً في كلام أبي بكر وعمر ومعاوية وجميع حكّام بني أميّة وبني مروان وبني العبّاس طوال مدّة حكومتهم، بادّعاء أنّ هذه السلطنة وهذه الحكومة، وبتبعها جميع الأعمال التي يقومون بها، كلّها على أساس التقدير الإلهي، وعلى هذا الأساس لا يكتفون بمجرّد رفع المسؤوليّة، وإنّما يصحّحون أعمالهم ويستكشفون إمضاءها وصحّتها.

والآن لنا أن نسأل: هل أنّ منطق عائشة ـ وبتبعه ذاك المنطق الكلّي ـ صحيح أم لا؟ وبناء على صحّته سوف تكون حرب عائشة ضدّ أمير المؤمنين مقدّرة من الله، وحيث أنّه لا يصدر شيء في العالم بدون الإرادة والتقدير الإلهيين، فلازم ذلك تصحيح ما يقع من الأفعال! لأنّه كان عين التقدير الإلهي، وهو فعل صحيح أيضاً ولا يؤاخذ عليه.

عن عروة قال: قلت لعائشة: من كان أحب الناس إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم؟ قالت: عليّ بن أبي طالب؛ قلت: أيّ شيء كان سبب خروجك عليه؟ قالت: لمَ تزوّج أبوك أمّك؟ قلت: ذلك من قدر الله، قالت: وكان ذلك من قدر الله.

٤

حسناً، ذاك الشخص يقول: باعتراف عائشة نفسها إنّ علي بن أبي طالب أقرب الناس إلى رسول الله وأحبّهم إليه، إذنْ لماذا خضتِ حرباً ضدّه؟!

فتقول عائشة: ألم يتزوّج أبوك من أمّك؟ لماذا تزوّجا؟

يقول: هكذا تزوّجا! حدث شيء فتزوّجا، وهو تقدير الله.

فتقول: كذلك ما فعلته أنا، هو تقدير الله، تماماً كما أنّك لا تستطيع أن تستشكل على زواج أمّك من أبيك، كذلك ينبغي أن توردَ عليّ شيئاً أيضاً!

نحن كذلك، هناك الكثير من الأفعال التي نقوم بها، هي من هذا القبيل، نبرّر لأنفسنا ونقول: سيّد! ما حدث هو تقدير الله.. كان مشيئة الله.. قد وقع ذلك وحدث.. وحيث أنّه فعل الله، فعل الله وتقديره، نكون قد أخرجنا أنفسنا من دائرة المؤاخذة والمسؤولية.

إذا كانت جميع الأعمال من الله، ففعلنا أيضا هو من الله، ومع كون فعلنا صادراً من الله، فلماذا نفصل إرادتنا واختيارانا ونهمّشهما؟ فلنقل: إنّ نفس إرادتنا واختيارنا من الله أيضاً، وبناءً عليه فإنّ جميع ما نواجهه من العواقب المترتّبة على هذا الاختيار وهذه الإرادة هي من فعل الله أيضاً، وهي كذلك معلولة لعملنا نحن. لماذا نجعل الله مغلوباً ومغلولاً في القضاء والقدر ونجعل أنفسنا غالبين وحاكمين على الله؟ فنحن جزء من هذه المظاهر الإلهيّة لعالم الخلقة، وقسم من هذه المنظومة الكلّية.

٥

صحيح أنّ كلّ شيء يندرج تحت قضاء الله وقدره، ولكن هل يعقل أنْ يكون لاختيارنا الذي نتمتّع به أي تأثير أصلاً؟! والحال أنّ هذا الاختيار يمثّل المؤثّر الأكبر.

لو كان ذاك الشخص يقول لعائشة: سيّدة عائشة! ها أنت جالسة أمامي فلماذا سترتي وجهك واحتجبتِ عنّي؟ ماذا تقول عائشة؟ سوف تقول: هي إرادة الله.. تقدير الله.. أو تقول: هو تكليف، حيث أمرني أن أستر وجهي وأحتجب عنك، ولكن تغطيتي لوجهي لا تتنافى مع الإرادة الكلّية لله.

ولذلك فإنّ حرب الجمل مع أنّها كانت بإرادة الله، وكانت حدثاً حتميّاً وقطعيّ الوقوع، وقد أنبأ النبيّ عن وقوعها من قبل، إلا أنّ ذلك لا ينافي كونها صادرة عن إرادة أُناس ذلك الزمان واختيارهم، بل نفس تحديد كون هذا الشخص من أهل الجنّة وذاك من أهل النار فهو راجع إلى هذه الحيثيّة، فتلك الإرادة والمشيئة الإلهيّة متنزّلة من ناحية الإرادة والاختيار البشري.

فالآن أنا أرفع "السكّريّة" بإرادتي، أليس كذلك؟! والحال أنّها عين إرادة الله أيضاً، الآن أرمي بـ السكريّة على الأرض فتنكسر، فهل أستطيع أن أقول: إنّها إرادة الله!! وأرفع بذلك المسؤوليّة عن نفسي كي لا أوقع نفسي تحت المؤاخذة؟! لا أبداً.. فهذا الكلام لا يقبله أحدٌ على الإطلاق؛ فالشرع أولاً وثانياً الوجدان وثالثاً العقل، كلّها مجتمعة على أنّك أنت الضامن، فقد كسرتها وعليك أن تصلحها، ومهما صِحتُ وصرخت بأنّ الذي فعل ذلك هو الله.. فسوف لا يعتني أحدٌ بكلامي وإنّما يحملون هذا

٦

الكلام على أنّي مجنون، يعني هذا الكلام كلام جنونيّ، يعني هل يعقل أن يقوم شخص في هذه الدنيا بالقيام بجناية ثمّ يقول: هي إرادة الله؟!

نعم، لو وقع هذا العمل بدون واسطة وتسبيب ودون إرادة واختيار، كما لو سقط الكوب من على الرف وانكسر، كأن حدثت زلزلة وأسقطت الكوب وكسرته، فلا دخل لاختيارنا بهذا الفعل، كما وأنّ الله قد رفع عنّا حكم الضمان في مثل هذه الحالة، ولكن حينما يكون لاختيارنا دورٌ فإنّ الله قد رتّب حكم الضمان علينا، كما جاء في قاعدة "**من أتلف**" القائلة بأنّه "**من أتلف مال غيره فهو له ضامن**". وجميع أنواع الضمان إنّما يفرّعونها على أساس هذه القاعدة، فهي قاعدة عقليّة وشرعيّة ووجدانيّة، يعني هي ليست قاعدة شرعيّة فقط! وإنّما هي قاعدة تجري في جميع المذاهب، بل إنّ قاعدة "**من أتلف**" جارية حتّى عند أصحاب شريعة الغاب، فلو مزّق أحدٌ ـ مثلاً ـ ملابس شخص آخر من قاطني الغابات الوحشيّة، أو أتلف له متاعاً أو أخذ من يده شيئاً عنوةً، نجده يلاحقه ويطالبه ويسترجع حقّه منه وذلك على أساس قاعدة "**من أتلف**".

إذن هذه قاعدة كلّية، فهل يمكننا أن نُخرج أنفسنا بشكل كلّي عن دائرة الحكومة الإلهيّة؟ ونحصر الدائرة الإلهيّة بخصوص الموارد التي لا تنالها إرادتنا واختيارنا؟! أم لا! وإنّما هو فعل الله، فمثلاً كسرُ هذه السكّريّة من الله، ولكنّه فعل الله الذي عبرَ من معبرنا ومرّ من نافذتنا وتحقّقَ من خلال طريق إرادتنا؛ فنحن جزء العلّة، أي إنّنا الجزء الأخير المتمّم للعلة والسبب الموجد.

فلو تتصوّرون أنّه ينبغي أن يتهيأ الآلاف من العلل والعوامل كي تنكسر هذه السكّريّة هنا، فأولاً: ينبغي أن يخلق الله التراب، وثانياً: لا بدّ وأن تجمع تلك الموادّ من التراب، ثالثاً: يأخذونها إلى المعمل ويطبخونها، رابعاً: يتأمّلون في تهيئة ما هو ضروريّ مثلاً: كذا وكذا وكذا، ثم بعد ذلك يعلّبونها في الكرتون، وبعدها يرسلونها إلى الدكّان ليبيعها، ثمّ يذهبون لشرائها، ويضعونها في مكانها، وهنا نحتاج إلى آلاف الآلاف من العوامل المستوجبة لحفظها، من القوى الجاذبة، والشرائط الزمانيّة والمكانيّة وسائر الأجزاء والأسباب الدخيلة في تحقّق ذلك، فكلّ ذلك مهيأ الآن، ولكن حفظها يحتاج إلى شرط آخر أيضاً، وهو الشرط الأخير، وهو عبارة عن اختيارنا لعدم كسرها، وإلا فلو نختار أن نكسرها فإنّ السكّريّة مع سائر خصوصيّاتها السابقة سوف تزول وتضمحلّ وسوف تخرب وتفنى.

إذنْ، كسر هذه السكّريّة الآن مع وجود جميع سلسلة الأسباب تلك، التي تتشكّل من آلاف الآلاف من العلل، متوقّف على جزءٍ منها والذي يمثّل جزء العلّة الأقوى والأهمّ من سائر الأجزاء، وهو الجز المتمّم لجميع الأجزاء وهو عبارة عن إرادتنا؛ فلو نريد تنكسر.. ولو نريد أن لا تنكسر فلا تنكسر.. أو نريد أن نصلّي فنصلّي، أو لا، فلا نصلّي.. نصوم.. أو لا.. فلا نصوم.. نحجّ.. نقتل إنساناً.. أو لا نقتل.. كذلك جميع المعاصي سائر الجرائم كلّ ذلك مربوط بإرادته، والحال أنّ الإرادة هي إرادتنا.

ولو اجتمعت كلّ الدنيا أرادوا أنْ يسلبوا الإرادة منّا ويأخذوا اختيارنا ويرفعوا المسؤوليّة عنّا.. لا يستطيعون! فنحن قد أردنا ونوينا القيام بالعمل السيّئ والقبيح، ونحن مسؤولون وينبغي أن نعاقب ونوبّخ؛ لأنّ الإرادة هي

إرادتنا. فنحن المسؤولون حتّى وإنْ لم نعلم كيفيّة تحقّق ذلك وصدوره منّا، وحتّى لو لم نعلم من أينَ أتينا، وأنّه من أي منشأ نشأ ذلك؟ فكلّ ذلك غير مرتبط بنا! ولو أردنا أن نجادل كثيراً عن ذلك فسوف يُقال لنا: كفّوا عن الفضول!! ويسألوننا: هل كان ما فعلتموه حسناً أم لا؟ فنقول: نعم، نعلمُ أنّه عملٌ سيّئ، فإنْ تعملوا عملاً حسناً فسوف لا يكون سيّئاً بالطبع، وإنّما تثابون عليه، فالشخص الذي يشرب الخمر وهو لا يعلم أنّه خمر، بل يتخيّل أنّه ماء فهو ليس بعاص، ولكن ذاك الذي يشرب الماء متخيّلاً أنّه خمر فإنّه ينبغي تأديبه ومستحقّ لنفس عقاب العاصي بالفعل، فحسب الميزان العام والقاعدة الكلّية عقاب التجرّي مساوٍ لعقاب العصيان، دون أدنى تفاوت.

لذلك، فإنّ العمل السيّئ الذي نفعله إنّما هو عملنا ونقوم به باختيارنا، والجنّة والنار قائمة على هذا الأساس ^فَرِيقٌ فِي ٱلْجَنَّةِ وَفَرِيقٌ فِي ٱلسَّعِيرِ%[1] والشقاوة والسعادة مبتنية على هذا الأساس، والأنبياء إنّما بعثوا لأجل ذلك، فدعوتهم بأجمعهم واضحة، وقتل الأنبياء وكذلك قتالهم ضد أعدائهم مرتكز على هذا الأساس، والدعوة قائمة على هذا الأساس، والدين مبنيّ على هذه القاعدة، ولو لم تكن هذه المسألة محكّمة لما بقي شيء.

وحينما نهمّش اختيارنا وإرادتنا جانباً، فهو يعني أنّنا وصلنا إلى مرحلة لا إرادة لنا ولا اختيار، وهو ما يعني أنّنا لسنا مسؤولين وغير

---

[1] ـ سورة الشورى (٤٢) ذيل الآية ٧.

مكلّفين ^لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا وُسۡعَهَا%[١] ^لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفۡسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا%[٢] وأمّا مع ملاحظة امتلاكنا للاختيار فهو يعني أنّنا على هذا الأساس يكون لدينا جنّة ونار، وسعادة وشقاوة.

ولو قلتم: إنّ الجنّة والنار هما لله! فنقول: حسناً، فليكن ذلك، ولا كلام لنا على ذلك أبداً، بل نحن نريد أنْ نقول نفس هذا القول، فالله لديه جنّة ولديه جهنّم، ولكن ذاك الشخص الذي يدخل الجنّة أو يرد جهنّم، إنّما يدخلهما بنفسه وبقدميه، والحال أنّ نفسه وقدمه وإرادته والجنّة وجهنّم كلّها ملكٌ لله، ولا كلام لنا من هذه الجهة **(ولا يمكن الفرار من حكومتك)** فهذا كلام تامّ، وصحيح، إلا أنّه لا يرفع المسؤوليّة عنّا، وهو محلّ كلامنا.

فأنا أترك السكّريّة لوحدها فتقع وتنكسر وأنا أعلم بذلك، حينئذ أكون مؤاخذاً ويقولون لي: تعال وتعهّد بالضمان! ولا يمكنني أن أقول: أنا أرفع هذا الضمان عن عهدتي، متذرّعاً بأنّ الذي فعل هو الله، بداهة أنّ الذي حكم بالضمان هو الله أيضاً، والضامن والمضمون والحكم بالضمان وكلّ شيء هو لله أيضاً.

فما الإشكال إذاً؟ فهل يبقى هناك إشكال؟ فهل من الواجب أن ندخل الله في ثقب سيخ "القشق"؟!! ونُشخّصه في تلك الزاوية الاستثنائيّة ونجعله هو صاحب الاختيار لنصدر عليه الحكم؟! أو أنّه ننظر إلى المسألة

---

[١] ـ سورة البقرة (٢) صدر الآية ٢٨٦.

[٢] ـ سورة الطلاق (٦٥) مقطع من الآية ٧.

من رؤية توحيديّة ونتأمّل بها ونبحثها من خلال الوجدان، فإنّ كلّ العالم هو لله، وبناءً على ذلك حينئذٍ فإنّ الحكم بالضمان هو حقّ لله أيضاً، فنفس إلزامي بوجوب دفع هذا المبلغ لذاك الشخص هو من الله، والمال أيضاً من الله، فإنّه يأخذ المال الذي يعطيني إيّاه، وذلك ارتكازاً على البديهة العقليّة من أنّه مال الله، والعقل الذي وُهب له هو من الله، والشرع القائل بأنّ مالك الذي أتلف لك أنْ تأخذ ضمانه كذلك هو من الله، حينئذٍ فكيف يحقّ لي أنْ أقول: إنّ الكاسر لهذا الشيء هو الله، ومع ذلك أدّعي بأنّي لست ضامناً لأنّ الله هو الذي فعل ذلك؟! ها..؟! هل هذا صحيح!

فعائشة جَيّشتْ وقامتْ وقتلتْ مَنْ قتلتْ وهتكتْ حرمة زوجة النبيّ، فعائشة حينما جاءت إلى النبيّ وهو على فراش الموت، وسألته أنْ يا رسول الله انصحني وأوصني!! فأجابها رسول الله: ^وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ%[1]

وهذا عجيب جدّاً! فكلّ نساء النبيّ أتين إليه يودّعونه ويقبلون يديه وأقدامه، والكلّ طلب من النبيّ النصيحة، والنبيّ بدوره قال لكلّ واحدة منهنّ كلاماً خاصّاً بها، وأمّا لهذه فإنّه يقول لها: ^وَقَرْنَ فِي بُيُوتِكُنَّ% أي: اقعدن في بيوتكنّ! اجلسوا في زاوية المنزل! ولا تخرجوا من منازلكم! استقرّوا! استقرّوا في بيوتكنّ!! لا تخرجوا! هذه هي النصيحة التي نصح بها رسولُ الله عائشة.

وبعد ذلك شرع النبيّ يبكي بحرقة، وحينما يسألونه لمَ تبكي؟ يقول: أنا مشفق لما سيحصل، فهذه زوجتي، وهي ناموسي وعرضي!!

---

[1] ـ سورة الأحزاب (٣٣) صدر الآية ٣٣.

وسوف تقوم في وجه عليّ بن أبي طالب مع تلك الأبّهة والعظمة وتركب الجمل وتمتطيه بعنوانها رئيسة جيش!! فزوجة النبيّ مهمّة جدّاً.. زوجة النبي هي عرض النبيّ! زوجة النبيّ هي فراش النبيّ!! وإفشاؤه وإشاعته في الخارج عبارة عن انهدام أصل الدين.. وكأنّ الكعبة قد هدمت.. وهو يعادل احتراق القرآن.. حيث أنّ زوجة النبيّ تخرج للدفاع!! فالمسألة من هذا القبيل، أي يبلغ الأمر أن تخرج زوجة النبيّ وتنهض للدفاع والثورة!! أيّها الناس...!

انظروا إلى كيفيّة الترويج والتدبير وحجمهما الخطير، وتلك السياسة الشيطانية الحادّة والقويّة، بحيث أخرجتْ معها أولئك الجاهلين الذين بلغ عددهم اثنا عشر ألفاً ولحقوا بركبها، حيث كانوا يقفون على أقدام جملها! ويقاتلون ويقتلون أيضاً! مع هذا الجهل والتخبّط!! هل تتصوّرون أنّ ذلك أمر سهل للغاية؟! لا.. بل هو خطير جدّاً..

هذه هي سياسة عائشة وهذا هو منطق عائشة، وهو بعينه موجودٌ فينا جميعاً مع شيء من الزيادة أو النقصان، وذلك حينما نريد أن نفرّ من وطأة المسؤوليّة، ونهرب من المؤاخذة حينما نكون مدانين، فنخالف حتّى يبلغ الأمر مرحلة نصبح عرضة للمساءلة والحساب!! فنقول: هو تقدير الله! هل يمكن الفرار والخلاص من المكر الإلهي؟

اگر تيغ عالَم بجُنبد زجاى

نبرّد سرى تا نخواهد خداى[1]

---

(1) مهما تحرّك السيف وجال في هذا العالم، فلن يقدر على قطع رأس إلا بالمشيئة والإرادة الإلهيّة.

فنحن نطرح الجبر بشكل محكم، ونطرح هذا المنطق ونغلب الخصم به ونُسكته، نعم هذا المضمون صحيح، فمهما تحرّك السيف وجال في العالم فسوف لن تستطيع أنْ تقطع رأسَ أحدٍ إلا أن يشاء الله ويريد، وهذا صحيح ولكن كلامنا من جهة تحمّل المسؤولية وكونها على عاتق من تكون؟

نقول: هل يتحمّل الشمر المسؤوليّة أم لا؟ فنحن أهل التوحيد، نرى أنّ فعل الشمر هو فعل الله، وقطعُ السيف كذلك هو فعل الله، كذلك الإمام الحسين إنّما نراه من الله، كلّ شيء.. كذلك تراب كربلاء إنّما نراه من الله، فالكلّ لله، إلا أنّه من خلال التأمّل والتفكير نجد أنّه هناك أمران ومسألتان:

إحداهما: وجود الإمام الحسين والذي كان قد اختار هذا الاختيار، فهل هذا الاختيار خارج عن الله؟ وهل اختيار الشمر هو من غير الله؟ وهل أنّ فعلهم تشكّل وتحقّق في العالم الخارجي دون إرادتهم؟ أم أنّه لا، بحيث أنّ جميع هذه الاختيارات إنّما تحقّقت وصدرت بواسطتهم ومنهم، وحينئذ لنا أنْ نقول: إنّه مستوجبٌ للسعادة ورضوان الله أو للشقاء وجهنّم أو أنّه لا يستوجب ذلك.

فإن نقول: لا يستوجب ذلك فهو كلام خاطئ، وهو أمرٌ مسلّم! مسلّم عند جميع المدارس، لأنّه ليس المؤاخذ هم خصوص أفراد الإنسان المخيّرون (وذلك بناء على جميع المدارس، وجميع مذاهب العالم، وكل إنسان عاقل) فإنّهم يرون أنّ كلّ إنسان مختار مسؤول، بل حتّى المتوحّشون يحكمون بكون الإنسان المختار مسؤولا، بل إنّ هذه الغريزة متحقّقة أيضاً لدى الحيوانات، فلو نقرَ أحد الحيوانات حيواناً آخر دون أيّ

سبب، كأن تنقر دجاجة رأس دجاجة أخرى، فهي من حيث أنّها مختارة مسؤولة عن هذا الفعل، وقد ورد في ذلك رواية أنّه يوم القيامة سوف تعاقب، وعليه فنحن لا يمكننا أن ننكر الاختيار فينا، فما دام هناك اختيار فإنّه هناك مثوبة (من الجنّة والنار)، حينئذ نأتي ونقتل إنساناً، ثمّ نقول: لماذا قتلت إنساناً؟ نحن نقرأ أيضاً هذا الشعر:

اگر تيغ عالَم بجُنبد زجاى

نبرّد سرى تا نخواهد خداى

فإن نجب بذلك نكن مغالطين حينئذ!!

ما معنى المغالطة؟ تعني أنّنا لم نأت بمقدّمات برهانيّة في طرحنا الجواب للطرف الآخر، وإنّما نكون قد استفدنا من بعض المقدّمات الشعريّة وسبكناها بصورة برهان، وذاك المسكين لا يعرف كيف أصبح متحيّراً، ولكنّ الله لا يقع في المغالطة أبداً!!